

بعض من مكونات اللوحة الفنية

مسعود عبد الغفار محمد¹

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى اله وصحبه أجمعين .

وبعد :

لم يعد مفهوم اللوحة الفنية حكراً على فن الرسم ، وإن كانت أصولها قائمة في الرسم ، إذ ثمة تداخل بين جوانب اللوحة في الرسم والأدب ، وصار من المقرر به اليوم إطلاق مصطلح اللوحة في النص الأدبي المحتوي على مشاهد متعددة .

وكلمة اللوحة في أصلها اللغوي: تعني الظهور من فعل لاح يلوح⁽²⁾، ومنه في المصطلح الديني اللوح المحفوظ ، أي: مكان لائح ظاهر بمعلوماته للملأ الأعلى⁽³⁾ ويمكن أن يبحث المرء في هذا الظهور في اللوحة الرسمية ، وفي لوحة الأدب الخارجة عن الأطر تبعاً للقوة اللفظية ، وإيحاءاتها المتسعة ، ويمكن أن نقول : إن اللوحة في الأدب تعني تصوير التعدد المكاني ، والتعدد الزمني ، وهي أكثر روحانية من الرسم .

فالكلمات يمكن أن ترسم الأشكال ، والألوان، والحركات التي نلمحها ، وترصدها في اللوحة الرسمية ، ثم تضيف الكلمات فضاءات جديدة تبعاً لكونها أداة رمزية تتراكم عليها دلالات كثيرة ، فهذه الكلمات تضيف إلى معالم اللوحة الثابتة في الإطار المحسوس عند الرسام الأشياء الكثيرة .

1 - كلية التربية سوق الجمعة - ترهونة

2- لسان العرب لابن منظور ، ج13/251 (مادة : لوح) طبعة جديدة منقحة الناشر دار صادر بيروت - لبنان الطبعة بدون تاريخ .

3- ينظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج19/247 ، راجعه محمد بن إبراهيم الحفناوي ، الناشر دار الحديث - القاهرة 1428هـ - 2007م .

ونخلص إلى أن مصطلح اللوحة يقصد به تعدد الأمكنة، وتعدد الأزمنة، بل يقصد به تعدد الأشخاص أحياناً⁽¹⁾؛ لأنهم يمثلون تعدداً في الحركات ، وأمكنتها ، وحيزها الزمني ، كما تعني اللوحة تعامل الأشكال مع اللون ، وعلاقة هذا بالفكرة وبجنبات اللوحة الأخرى، وأن اللوحة في الأدب ذات أبعاد ثلاثة : الطول، والعرض والارتفاع ، يعبر ثلاثتها الزمن ، في حين نجد اللوحة في الرسم، أو النحت، أو التصوير الضوئي ذات أبعاد ثلاثة سَجَنَتْ لحظة من الزمن . وعليه تُعدّ اللوحة نوعاً من الصور ، إذ يمكن أن نقول : الصورة مفردة ولوحة ، فاللوحة عدة مشاهد ؛ لأن المشهد هو الصورة التي تحدث في مكان واحد وزمان واحد .

ولم تكن هذه اللوحة الجمالية في الأدب بعيدة عن الموروث البلاغي العربي الذي نعرف عنه النظر الثاقب، والحس المرهف ، فقد سعى البلاغيون العرب إلى تبيان معالم اللوحة تحت عناوين متعددة مثل : التمثيل ، والتشبيه التمثيلي ، والتشبيه المركب الذي يُنتزَعُ فيه وجه الشبه من متعدد ، وهذا المتعدد هو الذي يضح الحركة أو يضحّ اللون مع الفكرة ، فيمتد هذا اللون أو يُشخّصُ ، أو يوميء ويعطي ظلالاً وفسحة خيالية ، المهم أنه متعدد ولا يعطي جانباً واحداً جامداً قال لبيد :⁽²⁾ من (الطويل)

وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا كَالشَّهَابِ وَضَوْئِهِ *** يَحُورُ رَمَاداً بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعٌ⁽³⁾

يقصد الشاعر في هذا البيت أن كل امرئ يخبو بعد توقد ، حين تدركه المنية ، كالنار تكون ساطعة الضوء ، ثم تصبح رماداً .

1- الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف ، تأليف محمد سعيد البوطي ، ص568 ، الناشر دار المكتبي للطباعة والنشر - دمشق - سوريا 2006 م .

2- لبيد بن ربيعة بن مالك ، أبو عقيل العامري ، أحد الشعراء الجاهليين الأشراف ، ومن عالية نجد أدرك الإسلام ، وهو من المؤلفة قلوبهم ، وترك الشعر فلم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً، وله ديوان شعر ، توفي سنة 41هـ - 661 م . الأعلام لخير الدين الزركلي ج240/5 ، الناشر دار العلم للملايين بيروت - لبنان ، الطبعة الخامسة عشرة 2002 م .

3 - الديوان ص88 الناشر دار صادر - بيروت - لبنان الطبعة بدون تاريخ .

فوجه الشبه هنا سرعة الفناء، انتزعه الشاعر من أحوال القمر المتعددة إذ يبدو هلالاً، فيصير بديراً ، ثم ينقص حتى يدركه المحاق⁽¹⁾ وفي هذا البحث نكتفي بالحديث عن بعض جوانب الصورة الفنية الحركية لتعم الفائدة ، وقد قسمت هذه الدراسة إلى مقدمة ، وثلاثة مطالب، وخاتمة ، سائلاً الله أن ينفع بها الجميع .

المطلب الأول / جمالية الحركة في التصوير :

الحركة مظهر من مظاهر الوجود الحي، وهي سمة المخلوقات والكائنات الحية، والطبيعة النامية والكواكب، واتصاف الوجود بالحركة يعني بث الروح فيها، وطواعيته للخالق . عز وجل، ودلالته على وجود الخالق ووحدانيته، إذ في الحركة إشعار أعمق أكبر بوجود الصانع ؛ لأن الحركة تمثل المرحلة التالية أي : الإمداد بعد الإيجاد ، فتعني بعدئذ كينونة وفاعلية لا يتصوران من غير قوة خفية قضت بخلقهما ، وليست هذه الحركة في الوجود عمياء متخبطة ، بل قُدرت لها كل المراحل والماهيات من لدن عليم خبير⁽²⁾.

إن الحركة حياة ، والسكون موت ، وهي رمز لوجود الإنسان ، لذلك يظل يظماً إليها ويرقبها في الأشياء المتحركة ، بل في النقوش الثابتة المعبرة عن حركات نفسية ، وإذا استعملت الحركة في مضمار الفن دلّت على غليان ، وأريد بها إثباع الصفة النشطة للحياة ؛ لأننا إذا رصدنا حركة ، فقد وقعنا على جزء من الوجود ، ما دامت الحركة تعني مكاناً وزماناً ، أي : احتاج إلى الزمن ؛ لأجل التنقل ، وتعدد المكان .

وصحيح أن الأقدمين أبدعوا في الفن السكوني : الرسم والنحت ، وجاء العصر الحديث بالفن الحركي (السينما) إلا أن الحركة مرصودة في الفن القولي ، منذ أن كان ، وذلك لاتصافه قبل كل شيء بطابع الزمان ، ولتعبيره عن الأفكار المتحركة باللغة الحقيقية والمجازية ذلك ؛ لأن المبدع لا يجمد

1- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع ، تأليف السيد أحمد الهاشمي ، تحقيق يوسف

الصميلي ، ص 234 ، الناشر المكتبة العصرية - صيدا - بيروت 1425هـ - 2005 م .

2- الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف ص641 .

الحركة التي يتلقاها ، بل يسعى إلى بثّ المعنوي في الحسي فيها ، والتماس الإيحاءات ، وربطها بعدنّذٍ بالفكرة ، إذ يقتنع العقل بما يقول ، وتتبسط لديه القلوب .

وفي القرآن الكريم بإعجازه نجد الحركات على أنواعها، من حيث الرشاقة، والثقل، والسهولة، والقوة، والسرعة ، والحركة الباطنية ، والحركة الحسية الظاهرة ، ونجد الحركة عنصراً جمالياً مجسماً للمشاعر الدفينة ، ومُحدثاً تلهفاً يتابع الحياة المتحركة ، وكثيراً ما يعبر القرآن الكريم بالإشارة الحركية عن الموقف الشعوري ، مثل قوله تعالى : (وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ)⁽¹⁾ هذا الانزلاق الحسي المرغوب حركة من الداخل تكشف عن الغيظ الشديد ، وربطها بالعيون إثارة عظمى للخيال ، فالعين تحرّك وتبتطش .

ومن الصور الإشارية المخضلة⁽²⁾ بالحركة قوله . عز وجل (وَالْتَفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ)⁽³⁾ . تعبيراً عن هول رؤية العذاب ، وقد جاءت الحركات استحضاراً للمشاهد في تصوير القرآن الكريم ، وتنوعت وفق المعنى المبتغى ، فكانت قوية سريعة في موضع ، وبطيئة في موضع آخر⁽⁴⁾ . وقد دُرِسَتْ جمالية الحركة تحت عنوان أنواع التشبيه لدى البلاغيين العرب ، وكانت نظرة عبد القاهر الجرجاني تفصيلية عميقة لا تكتفي بذكر العنوان والشاهد كما درج المتأخرون ، إذ تنبّه إلى جمال الحركة ، وقال : "إن مما يزداد به التشبيه دقة ، وسحراً أن يجيء في الهيئات التي تقع عليها الحركات ، والهيئة المقصودة في التشبيه على وجهين : أحدهما : أن تقترن بغيرها من الأوصاف كالشكل، واللون ونحوهما .

1- سورة القلم (الآية : 51)

2- الحَظْلُ : اللؤلؤ الصافي . ينظر لسان العرب لابن منظور 95/5 مادة : (خ ض ل) .

3- سورة القيامة (الآية : 29 - 30) .

4- انظر جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز ، والتفسير تأليف أحمد زكريا يا سوف ص 149 - 165 ، الطبعة الأولى ، الناشر دار المكتبي - دمشق 1994م .

الثاني : أن تجرد هيئة الحركة حتى لا يراد غيرها⁽¹⁾.
واستشهد الجرجاني في المكان نفسه بقول الشماخ⁽²⁾: (من الرجز)
وَالشَّمْسُ كَالْمِرْآةِ فِي كَفِّ الْأَثَلِ * * * لَمَّا رَأَيْتَهَا بَدَتْ فَوْقَ الْجَبَلِ⁽³⁾
فالشمس شكل واللون إشراقها ، وهذا التنظيم الفني يتضمن إلى جانب
الشكل واللون الحركة ، إذ تُجسّد في هيئة المصاب بالشلل ، ومثل هذه
الصورة الحركية وإدراكها وتذوقها كثير في تراثنا البلاغي⁽⁴⁾.
ومن اللافت للنظر في كلمة الجرجاني جعله الصورة حركة خاصة ، أو
صورة تبرز فيها الحركة ، وهذا ما نسعى إليه في هذه الفقرة ، إذ لا شك أن
كل كلمة تعني الحركة ، ذهنية كانت ، أو حسية ، وأن الحركة واضحة في
الفعل ، بل هي قابعة في طبقات الاسم ، وإن كان مجرداً معنوياً ، فنحن لا
نستطيع أن نتصور شجاعة إلا في رجل شجاع ، وفي موقف متحرك تتبدّى
فيه مظاهر الشجاعة ، كما أن الفعل يتضمن الحركة لعلاقته الأساسية
بالزمن .

- 1- أسرار البلاغة تعليق محمد رشيد رضا ، ص157 ، الناشر دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت - لبنان - 1389 هـ - 1978 م .
- 2- الشماخ بن ضرار بن حرملة بن سنان الذبياني ، شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام ، وهو من طبقة لبيد والنابعة ، كان شديد متون الشعر ، ولبيد أسهل منه منطقاً ، وكان أرجز الناس على البديهة ، توفي في غزوة موقان سنة 22هـ - 643 م . ينظر المؤلف والمختلف للامدي ص177 صححه وعلق عليه الدكتور/ ف. كرنكو الناشر دار الجيل بيروت - لبنان الطبعة الأولى 1411هـ - لا1991م ، والأعلام لخبر الدين الزركلي ج3/175 .
- 3- البيت للشماخ بن ضرار الذبياني في ديوانه ص 394، تحقيق صلاح الدين الهادي ، الناشر دار المعارف بمصر ، الطبعة بدون تاريخ .
- 4- انظر عيار الشعر لابن طباطبا ، تحقيق طه الحاجري ، محمد زغول سلام ، ص 7 - 10 الناشر المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة 1956 م ، نقد الشعر لأبي الفرج قدامه بن جعفر تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ، ص 126 - 129 ، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان - بدون تاريخ، كتاب الصناعيتين لأبي هلال العسكري ص 45 - 48 تحقيق علي محمد البجاوي الناشر المكتبة العصرية بيروت - لبنان - 2004 م .

وما نبتغيه من جمال الحركة في الحديث النبوي بصورة عامة مناسبتها للموقف تمام المناسبة قبل كل شيء، وسيطرتها وتملكها للفكرة ، ولا نرمي إلى هذا في كل الكلمات ، بل في الصور التي تبرز فيها الحركة بروزاً واضحاً ، حتى كأنها هي الفكرة ، وتبرز كما تبرز النقوش على جدار منحوت ، أو كما يبرز التيار مياه البحر ، فتطغى صورة الحركة على سائر الجماليات في النص ، ويتلفظها البصر دون غيرها ، ولم نجد هذه المسألة في الكتب التي تحدثت عن تصوير الحركات على الرغم من أهميتها .

وقد أفرد عبد القاهر كلاماً على الحركة الخالصة ، ورأى أنها تتمتع بالتنوع والتكرار ، وهي في منظوره حركة مجردة من الشكل ، إذ يقول : " وأما هيئة الحركة مجردة من كل وصف يكون في الجسم ، فيقع فيها نوع من التركيب ، بأن يكون للجسم حركات في جهات مختلفة ، نحو أن بعضها يتحرك إلى اليمين ، والبعض إلى الشمال ، وبعض إلى فوق ، وبعض إلى قدام ، ونحو ذلك ، وكلما كان التفاوت في الجهات التي تتحرك أبعاد الجسم إليها أشد ، كان التركيب في هيئة المتحرك أكثر، فحركة الرجا ، والدولاب ، وحركة السهم لا تركيب فيها ؛ لأن الجهة واحدة ، ولكن في حركة المصحف في قول الشاعر ابن المعتز: ⁽¹⁾ (من الرجز)

وكأنَّ البرقَ مُصَحَّفٌ قارٍ ⁽²⁾ * * * فأنطَبَاقاً مَرَّةً وأنفِتاحاً ⁽³⁾

1- عبد الله بن محمد المعتز بالله - أبو العباس - شاعر مبدع (خليفة يوم وليلة) ولد في بغداد سنة 861 م وأولع بالأدب ، فكان يقصد فصحاء الأعراب ، ويأخذ عنهم ، وله مصنفات كثيرة منها (الزهر والرياض) ، (البديع) ، وله ديوان شعر مطبوع ، إلا أنه احتقر وسلم إلى خادم المقتدر (مؤنس) فقتله خنقاً سنة 908 م . ينظر الفهرست للنديم ص 186 ، ضبطه وشرحه يوسف علي طويل ، ووضع فهرسه أحمد شمس الدين ، الناشر دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان 1416 هـ - 1996 م .

2- قارٍ : تخفيف قارئ .

3- الديوان ص 121 قدمه عمر فاروق الطباع ، الناشر دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت - لبنان . الطبعة بدون تاريخ .

تركيباً ؛ لأنه في إحدى الحالتين يتحرك إلى جهة غير جهته في الحالة الأخرى⁽¹⁾.

فهي إذن حركة متنوعة في اتجاهين مختلفين ، وكأن الجرجاني يقصد جمالية اتساع المكان لدى تنوع اتجاه الحركة ، وأن التنوع في الجهة أكثر إظهاراً للحركة ، وأبعد عن سيما الثبات ، لذلك يستجلب الانتباه ، ويشير طاقة الخيال بشكل أقوى مما في الحركة ذات الاتجاه الواحد . وتلك لفظة طيبة من تراثنا البلاغي يُنظر إليها بإجلال وتقدير ويُحَمَّدُ عليها الجرجاني ، وذلك ؛ لأن تنوع الجهات ليس المقياس الوحيد ، والمعيار الفني الأوحى ، فالحركة ذات الاتجاه الواحد جميلة ، مادامت موافقة للفكرة .

ويمكن أن نستشهد لفكرة الجرجاني بحديث أبي هريرة⁽²⁾ رضي الله عنه . أن النبي . صلى الله عليه وسلم . قال : " مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ ، ثُمَّ مَشَى إِلَى بَيْتِ مَنْ يُبُوتُ اللَّهُ ، لِيَقْضِيَ فَرِيضَةً مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ ، كَانَتْ حَطَوَاتِهِ : إِحْدَاهُمَا تَحُطُّ حَطِيئَةً ، وَالْأُخْرَى تَرْفَعُ دَرَجَةً " ⁽³⁾.

فالحركة في تصوير هذا الحديث ذات اتجاهين كما استحَب الجرجاني الرفع إلى الأعلى ، والخط إلى الأسفل ، ولكن جمال الفن في الحديث يسمو على حركة البيت الذي استشهد به الجرجاني ؛ لأن الحركة في البيت حسية خالصة ، فالطرف الأول حركة البرق ، والطرف الثاني انطباق المصحف وانفتاحه ، في حين وجدنا في الحديث أن الحركة الحسية مجسمة لزيادة الثواب ، ونقصان الخطايا ، وتلك أمور غير مرئية كالبرق ، فهي إذن حركة في الذهن ، مع ما ترمز إليه من قيمة العلو والهبوط في مفهوم الإسلام ،

1- أسرار البلاغة ص 182 - 183 ، التبيين في البيان تأليف الإمام الطيبي ص 352 تحقيق عبد الستار حسين زموط . الناشر دار الجيل بيروت - لبنان .

2- هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي ، الملقب بأبي هريرة ، صحابي كان أكثر الصحابة حفظاً للحديث ورواية له ، ولد سنة 21 ق هـ - 602 م نشأ يتيماً ضعيفاً في الجاهلية ، وتوفي بالمدينة سنة 59 هـ - 679 م ، الأعلام ج 3/ 208 .

3- صحيح مسلم بشرح النووي ج 5 / 173 باب المشي إلى الصلاة تحقيق رضوان جامع رضوان ، حديث 666/282 الناشر مؤسسة المختار القاهرة 2001 م .

وهذا هو سر جمال الاستعارة المكنية " جعل الشيء المعنوي في صورة شيء حسي (1) .

ويميل المنظرون المعاصرون إلى أن جمال الحركة قابع في حيز الاستعارة، إذ بها يخرج الفن القولي من إسار التجريد والفن السكوني ، وقد ذكر في فصل أهمية الاستعارة الفعلية وخصوصياتها ، يقول الدكتور مصطفى ناصف : (2) " إن الواقع لا يعرف إلا الحدث ، ولكن اللغة لا تنهض إلا من خلال الدأب المستمر على تكوين الشيء المجرد ، ثم تأتي الاستعارة ، فتنتفض عن اللغة هذه السمة إلى حد بعيد ، وتعيد إلى الذهن والواقع طبيعتها الحقيقية، وطبيعتها هي الحدث، والفعل المستمر، ولكن الصورة الاستعارية تستطيع أن تعيد إلينا معنى الحدث المتحرك مهما يكن ظاهر العبارة متجهاً إلى صفة ثابتة كالطول مثلاً ، فالاستعارة هي التي تجعلنا نمارس هذا الطول فعلاً" (3).

ولكن نجد في بعض الأحاديث حركة مفعمة بالفاعلية، والغليان ، على الرغم من أنها مبنية على الحقيقة لا على المجاز ، مع العلم بأن التشبيه اختلف في كونه من المجاز ، أو الحقيقة وهو أقرب إليها على الوجه الأصح (4).

روى أبو هريرة رضي الله عنه . قال : " قال رسول الله . صلى الله عليه وسلم : " مَنْ تَرَدَى مِنْ جَبَلٍ ، فَقَتَلَ نَفْسَهُ ، فَهُوَ فِي النَّارِ يَتَرَدَّى فِيهَا ، خَالِداً مُخْلِداً فِيهَا أبداً ، وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا ، فَقَتَلَ نَفْسَهُ ، فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي

1- جواهر البلاغة ص 263 .

2- ولد بمصر سنة 1340 هـ - 1922 م ، باحث وأستاذ للبلاغة العربية القديمة ، وله عدة بحوث ، وأشرف على عدد كبير من الطلاب ، وتوفي سنة 1429 هـ - 1922 م .

3- الصورة الأدبية ، تأليف مصطفى ناصف ، ص 150 الناشر دار مصر - القاهرة 1958 م .

4- المنهاج الواضح ، تأليف حامد عوني ، ج 95/1 الناشر مكتبة الجامعة الأزهرية ، بدون تاريخ .

نَارِ جَهَنَّمَ ، خَالِدًا مَخْلَدًا فِيهَا أَبَدًا ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدِهِ ، فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ
يَجَأُ بِهَا بَطْنَهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، خَالِدًا مَخْلَدًا فِيهَا أَبَدًا " (1).

ويمكن أن نقول بحركة ذات اتجاهين في هذا الحديث ؛ لأنها متكررة ، ولا
تشبه حركة السهم، وفي تكررها يتنوع المكان، فالعاصي يشرب السم ، فيتعذب
به ، ثم يشرب مرة أخرى، متجرعاً حرارة في بطنه، ومعانياً حرارة جهنم
المحيطة به ، وهي حركة متكررة، ودائمة كما أكدت العبارة " خَالِدًا مَخْلَدًا فِيهَا
أَبَدًا " ، وهي التي أعطت سمة التكرار الدائم لكل مشهد : السقوط ، السم ،
الطعن .

والزمن موجود في كل واحد من هذه المشاهد ، خصوصاً الأفعال
المضارعة التي تقدم الأحداث سرمدية⁽²⁾ مستمرة ، وكأن هذه الأحداث تجري
الآن ، مع أنها من الغيب المستقبلي ، ومن قبيل الاستباق الزمني ، وحضورها
يزيد في فاعليتها .

ولا شك أن أدوات الموت تتغير ماهيتها في نار جهنم ، لتأخذ أثراً أكبر ،
كما يدل على الاستمرار أيضاً انتقاء الموت في العالم الآخر الإطار الزمني
لهذه الأحداث ، فتحصل مسببات الموت ، ولا يموت المعذب في جهنم قال
الله . تعالى : (يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ
وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ) (3) .

وكذلك الأفعال المضارعة الآتية بعد ثبات الجمل الاسمية " هو يتردى ، "
سُمُهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَاهُ" ، " فحديده في يده يجأ بها في بطنه " وهذا تنظيم فني
رائع يعطي نَسَقًا يُشْبِعُهُ وجود اللازمة " خَالِدًا مَخْلَدًا فِيهَا أَبَدًا " التي هيحيث
زمني للحركة .

1- صحيح البخاري ، كتاب الطب باب شرب السم والدواء به ج3/171 رقم الحديث 53333

تحقيق محمد عبد القادر عطا ، الناشر دار التقوى للتراث - القاهرة - 1421هـ - 2001 م .

2- السَّرْمَدُ : دوام الزمان من ليل ونهار أي : دائم غير منقطع . ينظر النهاية في غريب الحديث

والأثر لأبي السعادات بن الأثير الجزري ج2/363 (باب السين مع الراء) الناشر دار

الفكر للطباعة والنشر 2000 م .

3- سورة إبراهيم (الآية : 17) .

إنه كلام حقيقي وليس بالمجازي ، ولكنه بعيد عن الصبغة التقريرية لهول المواقف وأهميتها في الفكر الإنساني ، وقد بَنَّتْ التشكيل الفني إبحاءات كبيرة ، وأعطت الفكرة الدينية العميقة لنار جهنم ، وطبيعة اليوم الآخر جماليات كبرى .

ويمكن أن تدرك الحركة في كل الفنون ، وإن كانت بعض الفنون ثابتة في شكلها ، وهذا ما لحظه (ديوي)⁽¹⁾ " إذ رأى أن العمل بغض النظر مؤقتاً عن زمنه الفني هو عمل متحرك ، وشكل من الأشكال سواء في ذاته ، كما هو الحال في البالية⁽²⁾ والرقص ، أما بالنسبة للمتلقي ، كما هو الحال في رؤية أثر معماري"⁽³⁾.

ويسعى الفن الأدبي إلى أن يقتنص الحركة من فنون أخرى ، ويُقصد ههنا الإفادة من تعدد المناظر ، أو مناظر الحادث الجزعي من عدة زوايا ، كما في فن الصور المتحركة (السينما) فيتعدد المكان تبعاً لتغير المناظر وتعدُّدها ، والأدب أقدر الفنون بعد هذا على رصد الحركة المتتالية والمتنامية والمتنقلة ، وذلك لخصوصية أدواته اللغوية التي تمنحه الحرية الكبرى في رسم الخطوط . كما أن الفن الأدبي يسعى إلى نقل الذهني إلى مجسّم متحرك ، فيغدو الذهني المجرد كائناً ، خارجياً ، له نشاطه في الواقع العيني ، كما يقول نعيم

1- جون ديوي : مربي وفيلسوف وعالم نفس أمريكي وزعيم من زعماء الفلسفة ، ويعتبر من الأوائل المؤسسين لها ، ومن مصنفاته (البحث عن اليقين) ، ويعتبر من أشهر أعلام التربية الحديثة على المستوى العالمي . ولد في 20 من أكتوبر 1859 م وتوفي سنة 1952 م . شبكة المعلومات .

2- الباليّة : الشجرة البالية يأخذها الحاطب كيف يشاء في كسرهما . ينظر المختار الصحاح للشيخ محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ص 696 ، (مادة : هشم) ، الناشر الهيئة المصرية للكتاب 1976 م .

3- الشعر بين الفنون الجميلة " سلسلة المكتبة الثقافية " تأليف نعيم الوافي ص 93 - 94 . الناشر دار الكتاب العربي - القاهرة - 1968 م .

اليافى: (1) "الفرق بين الصور الحركية ، والمتحركة أن الأولى حركة في الخيال ، أما الثانية فحركة في الخارج ، وبعبارة أخرى ، تحريك للموضوع الذي لا يملك حركة ، في حين أن الثانية رُصد لحركة الجسم المتحرك ، وكلا النوعين من الصورة وجد في التيار التقليدي ، وكان يقوم غالباً في صور الاستعارة المكنية " (2) .

والجدير بالذكر أن الحديث الشريف استحوذ على هذين النوعين من الجمال الحركي ، فصور المجردات ، وصور الأجسام ، وأعطاهما الحركة ، ولم يصفِ المجردات ، والأجسام وصفاً حسيّاً خالصاً ، بل أضفى عليها جوانب إيحائية يمكن أن تصوّر خارج اللوحة ، فارتبطت الحركة بالمنطق الحسي ، مع الكثير من بث الروح في الحسي .

والجميل في الحركة أن تكون انسيابية في القوة، أو الضعف ، أي تظل مطابقة لحدود الفكرة ، فلا تتسم بالإسراف ، أو التقصير ، إذ ليس ثمة افتعال فيها ، وتلك سمة يتلمسها الباحث لصور الحديث النبوي ، قال جان ماري جويتو: (3) "فالجمال الأسمى في الحركات مُستمد إذن من غير الحركات ، إنه يأتي من فوق ، ويأتي من أفق الإرادة والعواطف ، ولكي نجد تعليقه الصحيح ، فلا بد من الصعود إلى هذا الأفق أفق الإرادة والعواطف " (4) .

- 1- ولد بحمص سنة 1936 م ، وتلقى تعليمه بها ، وتردد على حلقات العلماء في المساجد ، ثم نال الإجازة في الأدب العربي من جامعة القاهرة سنة 1960 م ومن مصنفاته (تطور الشكل الفني للقصة القصيرة ، وتوفي بحمص سنة 2003 م . انظر شبكة المعلومات .
- 2- تطور الصورة الفنية في الشعر الحديث . تأليف نعيم اليافعي ، ص 207 اتحاد الكتاب العرب - دمشق - 1983 م ، والاستعارة المكنية ، ما حذف فيها المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه مثل استعارة العيون للفضل والأذان للمجد والذيل للغي ، ولا نرى اقتصار الحركة على المكنية ولا غيرها .
- 3- لم أعتد له على ترجمته .
- 4- الصورة الفنية في الحديث النبوي لمحمود سعيد رمضان البوطي ص 649 ، الناشر دار المكتبي سوريا - دمشق - 2006 م ، مسائل فلسفة الفن المعاصر ، تأليف جان ماري جويتو، ترجمة سامي الدروبي ، ص 48 ، الطبعة الثانية ، الناشر دار اليقظة العربية - دمشق - سوريا 1965 م .

إننا لا نجد في الحديث النبوي إلا الفكرة الحقيقية تتحرك في صور الحركات، ولا تقع على حركة منفصلة بشكل غير إرادي ، أو أن حجمها أكبر من الفكرة ، فهي عفوية الصدور، مقنعة مؤثرة ، متسلسلة الأجزاء ، وذلك ؛ لأن الحديث النبوي فن بعيد عن نقيصة الافتعال .

وسنبين ذلك ببعض النماذج من الحديث النبوي ، نستخلص منها جمال تصوير الحركة ، والنظرة مختلفة عما ورد في فقرة الاستعارة الفعلية ، لأننا هنا سنضيء جوانب تصوير حركة المجردات والأجسام، ونعني بالخطوط التي ترسمها الحركة ، ونبين نوع هذه الحركة من حيث الحركات القوية ، والحركات الضعيفة ، والحركات المنقطعة ، والحركات الدائرية ، وندلل على الطاقة النفسية لكل منها ، ونبين سمة تصوير اللوحات ، والركائز الفنية التي يتكئ عليها التصوير من تشبيه واستعارة ونقدم حجم تأثيرها ، وندلل على تعدد المكان .

المطلب الثاني / الحركة القوية السريعة :

غالباً ما تعتمد صورة الحركات القوية في الحديث النبوي على الاستعارة ، وهي تنقل المجرّد الذهني في كثير من الأحاديث إلى أجسام مشاهدة متحركة ، وهذه الحركة على أنواع من حيث الخطوط التي ترسمها ، شاقولية⁽¹⁾ ، أو دائرية ، وغير هذا كذلك من حيث الزمن الذي تستغرقه من خلال العماد الفعلي أو الحيز الزمني الذي يؤطرها .

وعلى سبيل المثال يستعار الخوض في الماء للتجني لدى آكل المال الحرام ، كما في الحديث الذي روته خولة الأنصارية⁽²⁾ . رضي الله عنها . ،

1-الشَّاقُولِيَّةُ : هي حركة العين إلى أعلى ، وإلى أسفل . ينظر الموسوعة العربية العالمية . شبكة المعلومات ، كتاب العين للفراهيدي، تحقيق مهدي المخزومي ، إبراهيم السامرائي ، ج1/370 ، الناشر دار ومكتبة الهلال بدون تاريخ ، لسان العرب ج8/113 (مادة شقل) .

2- هي خولة بنت قيس بن فهد بن ثعلبة الأنصارية أم محمد ، وقيل أم حبيبة ، قتل عنها حمزة بن عبد المطلب ، وخلف عليها النعمان بن عجلان الأنصاري ، وقال علي بن المدني : خولة بنت قيس هي خولة بنت ثامر . فإن كانت هي فالحديث مشهور، وإن كانت امرأتين فابنة

قالت : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . يَقُولُ : " إِنَّ رِجَالًا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللَّهِ بِغَيْرِ حَقِّ ، فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ⁽¹⁾ .
والخوض هو : المشي في الماء وتحريكه ⁽²⁾ ، وذلك يحتاج إلى جهد عضلي يجعل المرء داخل المياه التي تجسّم المآثم المحيطة به نتيجة الظلم ، ها هنا حركة خطيرة ، ومنتقلة أمام البصر ليس لها اتجاه مما يعبر عن الضياع النفسي ، والقلق المفزع ، فلها أكثر من مكان ، وإن تشابهت الأمكنة تبعاً لتكرار المياه ، والمنظومة الصوتية تسعف التصوير ، وتعضه في التجلي ، إذ يفيد الفعل بتركيبه الصوتي عنف هذه الحركة ، حيث الواو المشددة ، ثم حرف الضاد المضموم .

والحركة القوية والعنيفة المروعة تتجلى في حديث آخر لدى مشهد الحَسَف ، وهو في الأصل زلزلة الأرض وانشقاقها ، روى أبو هريرة . رضي الله عنه . عن النبي . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَّةٍ ، تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ ، مُرَجِّلٌ جُمَّتَهُ ، إِذْ حَسَفَ اللَّهُ بِهِ الْأَرْضَ ، فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ " ⁽³⁾ .

إن الانتفاخ الناتج عن التبخر ، والإعجاب بالنفس ، والعلو الزائف بالقشور من تسريحة شعر ، أو زي ثياب ، أو تبخر ، كل هذا يتبعه انحسار يوضحه التصوير ، وقد تم هذا الانحسار بالهبوط إلى الأسفل ، والتعبير يدلّ على

ثامر لم يرو عنها غير النعمان بن أبي عجلان . ينظر معرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني ج6/3304 تحقيق عادل بن يوسف العزازي . الناشر دار الوطن للنشر - الرياض - الطبعة الأولى 1419 هـ - 1998 م ، الإلزامات والتتبع لأبي حسن الدار قطني ص76 تحقيق مقبل بن هادي الوادعي الناشر دار الكتب العلمية الطبعة الثانية 1405 هـ .
1- صحيح البخاري باب قوله - تعالى : ﴿فَأَنذَرْتُكَ لِيَوْمِ الْحُسُوفِ﴾ ج2/116 ، حديث 2886 . ضبطه محمد عبدالقادر أحمد عطا . الناشر دار التقوى للتراث 1421 هـ - 2001 م .
2- معجم مقاييس اللغة تأليف أبي الحسين أحمد بن فارس الرازي ، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين ج1/384 ، الناشر دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان 1420 هـ - 1999 م .
3- صحيح مسلم ، كتاب اللباس ، باب تحريم التبخر: ج14/67

المفاجأة العنيفة المذهلة من خلال قوله : " بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي إِذْ خَسَفَ اللَّهُ بِهِ " .

والتعبير "يَمْشِي فِي حُلَّةٍ تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ" لغة مصورة أقوى أثراً من قوله : " بَيْنَمَا رَجُلٌ مُتَكَبِّرٌ " ، إذ جاء التعبير بالصورة مباشرة مع الحركة ، واستحضرت الحركة المتعالية إلى فوق ، كما استحضر التعبير بالمضارع (يَمْشِي) و (تُعْجِبُهُ) المشهد للدلالة على نشاطه وحيويته ، وكأن الرجل مائل أمام الأبصار ، ثم يهبط من العلو إلى الأسفل ، حيث أعماق الأرض المكان الغيبي الذي تم الانتقال إليه من الضيق إلى الوسع لكنه غير مريح ، والزمن السرمدي في (يَتَجَلَّجَلُ) المضارع يعطيه طابع التهويل ؛ لعدم تحديد حجمه الذي يحتوي هذه الصورة الشاقولية الهابطة إلى الأعماق مما يفرغ القلوب . وتشفع الصورة الحركية هنا بصورة ضوئية ، تميل من النور على سطح الأرض إلى العتمة في باطن الأرض ، وهي ظلمة مروعة ذات مكان غريب ، وثمة صورة صوتية توائم القوة والرعب ؛ لأن الجلجلة حركة مع صوت شديد⁽¹⁾ ، وهذا الانضمام يتضمن الهلع البالغ ؛ لأنه مؤطر بالنفوذ في الباطن والمجهول .

وروى عبد الله بن عمر⁽²⁾ رضي الله عنهما . ، عن النبي . صلى الله عليه وسلم قال : " مَنْ أَخَذَ مِنَ الْأَرْضِ شَيْئاً بَغَيْرِ حَقِّهِ ، خُسِفَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى سَبْعِ أَرْضِينَ "⁽³⁾ .

ومفهوم الأرضين السبع من عالم الغيب ، وهذا مما يزيد الحركة ضخماً للرعب، وتبيناً لعقوبة الظالم بما هو غير محدود في حياته ، كما أن الخسف يجري مستمراً ؛ ليصل إلى عوالم الآخرة ، فله ماهيات مختلفة عن خسف

1- لسان العرب ج3/184 (مادة : جلال) .

2- عبد الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة ، أبو جابر الأنصاري الخزرجي السلمي : صحابي ، من أجلاتهم ، كان أحد النقباء الاثني عشر ، وشهد العقبة مع السبعين من الأنصار ، وبدراً وقتل يوم أحد سنة 3هـ - 625 م . ينظر الأعلام ج4/111 .

3- صحيح البخاري ، كتاب المظالم والغصب ، باب إثم من ظلم شيئاً من الأرض ، ج1/590 رقم الحديث 2274 .

الدنيا ؛ لأنه من عالم الغيب ، وله صلة بالمطلق المكاني والزمني . وتبدو المسافة في هذه الصورة طولانية ، إذ تبدأ من سطح الأرض ، وكلما امتدت كثرت العتمة ، وادلهمت الظلمات شيئاً بعد شيء ، وتزداد هذه الصورة عن صورة الحديث السابق إذ جعلت للظالم هنا مساحة كبيرة يتم بها الخسف فهي من سبع أرضين .

وقد ناسبت المسافة أن تكون سبع أرضين ؛ لأن المغتصب شيء من الأرض أيضاً ، خلافاً للمتكبر المزهو ، فهذه الزيادة تناسب الزيادة في ظلم الآخرين ، في حين كان الحديث الأول يؤكد عقوبة المتكبر الذي يظلم نفسه ، فالمظالم أعظم من الظلم الذاتي ، وحقوق العباد أكثر عُصياناً للخالق من حقوق المعبود ، وما دامت الأرضون السبع من الغيب ، فإن الهول المتجلي في تصوير هذه الحركة غير محدود .

ولا ريب أن الرعب الناتج عن العنف هاهنا يتصل بالخط الطولاني للتصوير، كما يقول ريتشارد ز:⁽¹⁾ "فالحركة من أعلى ، أو أسفل لها طابع يختلف عن طابع الحركة من اليمين ، أو اليسار، وهذه بدورها تختلف عن الحركة اتجاهاً،

أو بعيداً عنا ، فالمسافة الرأسية لا تبدو مساوية للمسافة الأفقية ، وإن كان لها نفس المقاس، ولا يبدو أن المسافة بعيدة عنا تساوي أياً من هاتين المسافتين الأوليين"⁽²⁾ ويمكن أن نبين هذه الميزة أي الخط من الأعلى إلى الأسفل في حركة الكب ، كما في حديث سعد بن معاذ . رصي الله عنه ، أن

1- أيفور أمسترونجرينشاردز : ناقد أدبي وعالم بلاغي ، تلقى تعليمه في الكلية المجدلوية في كامبردج ، أثرت كتبه في توجهات النقد الجديد ، ككتاب معنى المعنى ، ومبادئ النقد الأدبي ، والنقد العلمي ، وفلسفة البلاغة (قاد مبدأ النقد العملي إلى تطبيقات القراءة الوثيقة التي يعتقد أنها أسست بدايات النقد الأدبي الحديث ، ويعتبر أحد مؤسسي دراسات الأدب الإنجليزي المعاصرة، ولد سنة 1893 م وتوفي في كامبردج سنة 1979 م . ينظر شبكة المعلومات .

2- مبادئ النقد الأدبي ، تأليف أيفور أمسترونجرينشاردز ص221 ترجمة محمد مصطفى بدوي ، الناشر المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، القاهرة 1963 م .

رسول الله . صلى الله عليه وسلم . قال في حديث طويل : " يَا سَعْدُ ، إني لأُعْطِي الرَّجُلَ الْعَطَاءَ ، وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ ، مَخَافَةَ أَنْ يُكَبَّ عَلَيَّ وَجْهَهُ"⁽¹⁾ وهكذا تُولف القلوب ، ويحبب إليها الدين الحنيف ، وحركة الكب هي الانتكاس على الوجه ، والترجيع نابع من قوة الحركة ، ونهاية خطها في قلب النار ، والصورة من حيث الواقع ، محتملة للرجل المعطي ، وثابتة واقعة للكافر⁽²⁾ هذه الحركة تشبه حركة الكب في المثل الذي جسم به القرآن الكريم الهداية والضلال، قال الله تعالى : (أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)⁽³⁾ وتفتقر الآية الكريمة عن هذا الحديث ، وكذلك كما ذكر في حديث طويل عن معاذ بن جبل⁽⁴⁾ . رضي الله عنه . عن النبي . صلى الله عليه وسلم . فقال : " تَكَلَّمْتُكَ أُمَّكَ يَا مُعَاذُ ، وَهَلْ يُكَبُّ النَّاسُ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ . أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ " ⁽⁵⁾ .

فالآية تعبر الحركة هنا عن المشيئة الصالحة ، والمشية السيئة ، فهي مجسمة للمشاعر ، والمقاصد ، كما أنها تمتاز بجمال أخاذ ، وذلك ؛ لأن الإنسان هو الذي يختار هذه المشيئة المنكوسة بنفسه مخالفاً الموازين ،

- 1- داود ، كتاب السنة ، باب الدليل على زيادة الإيمان ص1069 (الحديث رقم 4685) وضع فهارسه هيثم بن نزار تميم ، الناشر دار الأرقم أبي الأرقم - بيروت - لبنان . ، الطبعة الأولى 1420 هـ - 1999 م .
- 2- الصورة الفنية في الحديث النبوي ص653 .
- 3- سورة الملك (الآية : 22) .
- 4- معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الجزرجي ، أبو عبد الرحمن : ولد سنة 20 ق هـ - 603 م وهو صحابي جليل ، كان أعلم الأمة بالحلال والحرام ، وهو أحد الستة الذين جمعوا القرآن على عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - أسلم وهو فتى ، توفي عقيماً بناحية الأردن ودفن بالقصير سنة 18 هـ - 639 م . ينظر الإصابة في معرفة تمييز الصحابة تأليف أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ج311/4 ، تحقيق علي محمد الجاوي ، الناشر دار الجبل بيروت الطبعة الأولى 1412 هـ .
- 5- الترمذي ، كتاب الإيمان ، باب ما جاء في حرمة الصلاة ص741 رقم الحديث 2621 . طبعة منقحة ، الناشر دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان 1422 هـ - 2002 م

ويصبح وجهه قدمين له مما يرفع، وهكذا يبين هذا الوجود المنكوس انتكاسة مهينة بين طبيعة هذا العاصي على شذوذها ، وانقلابها عن الموازين . كما اتسم الحديث بالمضارعة في حين جاء التعبير في القرآن بالاسم للدلالة على الديمومة ، والثبات في هذه الحركة ، فهي حال ثبات ، وهي في الحديثين كب بعد كب ، ويُلاحظُ في هذه الحركة القوة المناسبة للفكرة الترهيبية . والكب حركة سريعة يفقد معها الجسم توازنه ، ويهان بها الإنسان أشد الإهانة ؛ لأنها تتوجه إلى الرأس ، وهو أعلى عضو في الإنسان ، وإذا بها الرأس الذي يحوي الدماغ يهبط ، ليكون كسائر الجسد ، بل هو بمستوى الأقدام ، وفي ذلك إذلال وقهر .

وتزداد الفكرة وضوحاً، وتقريراً، وارتفاعاً كلما تمثلنا قوة هذه الحركة، وقد قال جويو : " إن الحركات لا يمكن أن تعرف باقتصاد القوة فحسب ، فإن بين الأهداف التي ترمي إليها ما يبلغ من الرفعة مبلغاً تهون عنده كل قوة ، بل يكون من الصّعة عندئذ أن تحسب القوة حساباً دقيقاً ، ويكون الجمال الأسمى في التبذير لا في الاقتصاد" (1) .

وروى أبو الدرداء (2) . رضي الله عنه عن النبي . صلى الله عليه وسلم . قال : " إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَعَنَ شَيْئًا ، صَعِدَتِ اللَّعْنَةُ إِلَى السَّمَاءِ ، فَتُعَلَّقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ دُونَهَا ، ثُمَّ تَهْبِطُ إِلَى الْأَرْضِ ، وَتُعَلَّقُ أَبْوَابُهَا دُونَهَا ، ثُمَّ تَأْخُذُ يَمِينًا وَشِمَالًا ، فَإِذَا لَمْ تَجِدْ مَسَاغًا رَجَعَتْ إِلَى الَّذِي لَعَنَ ، فَإِنْ كَانَ لِذَلِكَ أَهْلًا ، وَإِلَّا رَجَعَتْ إِلَيَّ قَائِلًا " (3)

1- مسائل فلسفة الفن المعاصر ص47 ، ترجمة سامي الدروبي ، الطبعة الثانية ، الناشر دار اليقظة العربية - دمشق - سوريا 1965 م .

2- أبو الدرداء : هو عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الأنصاري الخزرجي ، أبو الدرداء : وهو صحابي من الحكماء الفرسان القضاة ، كان قبل البعثة تاجراً في المدينة ، ثم انقطع للعبادة ، ولما ظهر الإسلام ، اشتهر بالشجاعة والنسك ، وهو أحد الذين جمعوا القرآن ، حفظاً على عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - مات بالشام سنة 32هـ - 652 م . الأعلام للزركلي ج98/5 .

3- أبو داود ، كتاب الأدب ، باب في اللعن ص1114 رقم الحديث 4905 .

ونجد في هذا النص حركة يقوم بها كائن مجرد هو اللعنة ، وهذه الحركة راسمة لخط نحو الأعلى ، وخط نحو الأسفل ، ثم كان لها خط نحو اليمين ، وخط نحو اليسار مما يعطي صورة عرضية ، وهذا يعني اشتغالها على الجهات ، والأمكنة تميل إلى الخصوص لا إلى العموم ؛ لكون السماء ذات أبواب لا نراها بأعيننا ، وكذلك أبواب الأرض .

وهكذا نرى أن الفضاء الذي تجلّت فيه هذه الحركة المجسّمة كان وسیعاً ، هذا الفضاء الذي لا نعرف له لوناً ، ولا نعرف له حدوداً ، ولا موجودات إلا هذه الحركة التجريدية تسبح في هذا الفضاء ، وتكاد تُكون حركة منقطعة ثابتة بعد انسداد الأبواب ، لكنها لا تلبث أن تنطلق إلى غايتها ، أما الزمن فهو أيضاً غيبي لا نقره بأوقاتنا ، فهو سريع إذا كان المكان غيبياً .

وفي حديث آخر نجد حركة مرئية كما كانت اللعنة ، فهي عندما تتحقق تكون غير مرئية ، وهي مرئية لحظة الكلام المجسّم عنها حيث يختلط الروحي بالحسي ، فقد روى عمرو بن عبسة . رضي الله عنه .⁽¹⁾ عن النبي . صلى الله عليه وسلم . قال : " إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا تَوَضَّأَ فَعَسَلَ يَدَيْهِ خَرَّتْ⁽²⁾ حَطَايَاهُ مِنْ يَدَيْهِ ، فَإِذَا غَسَلَ وَجْهَهُ خَرَّتْ حَطَايَاهُ مِنْ وَجْهِهِ ، فَإِذَا غَسَلَ زِرَاعِيَهُ وَمَسَحَ بِرَأْسِهِ خَرَّتْ حَطَايَاهُ مِنْ زِرَاعِيهِ وَرَأْسِهِ ، فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَّتْ حَطَايَاهُ مِنْ رِجْلَيْهِ⁽³⁾ .

1- أبو نجيح عمرو بن عبسة بن جبلة بن حذيفة ، صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو من قدماء الصحابة يقال أنه كان ربع الإسلام . ينظر الأنساب للسمعاني ج1/299 ، وضع حواشيه محمد عبد القادر عطا ، الناشر دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ، الطبعة الأولى 1419هـ - 1998م .

2- خَرَّتْ : سقطت وذهبت ويروى : جرت بالجيم : أي جرت مع ماء الوضوء . ينظر النهاية في غريب الحديث والأثر لأبي السعادات بن الأثير الجزري ج2/21 ، الناشر دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت لبنان 1421هـ - 2000م .

3- سنن ابن ماجه ، تأليف أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ، كتاب الطهارة ج1/288 ، باب ثواب الطهور ، رقم الحديث 283 كتب حواشيه محمود خليل ، الناشر مكتبة أبي المعاطي الطبعة بدون تاريخ .

فهذه الصورة مرئية من حيث التجسيد اللغوي ، وغير مرئية ؛ لأن فاعليتها غيبية ، كما أنها صورة قريبة تضعنا جانب المتوضىء، وقد تحركت الخطايا من الأعلى إلى الأسفل ، وجعلنا التعبير المتكرر (خَرَّتْ خَطَايَاهُ) نرقب هذه الحركة ونقترب منها مع كل عضو ، مما يؤكد حتمية الحدوث لهذه الحركة التي توحى بالرشاقة ، وخفة الثقل عن الجسم ، ليظلَّ المسلم ناهضاً إلى العالم العلوي .

ولا تكمن القوة في تعدد أمكنة الحركة واتصافها بالزمان الطويل والمسافة كما في الأحاديث السابقة ، فثمة حركات ثابتة تدل على قوة سابقة على ثباتها ، كما في قوله تعالى: (خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)⁽¹⁾ فهنا محاصرة وشدة خناق ، كما في حديث أبي هريرة . رضي الله عنه قال رسول الله . صلى الله عليه وسلم : " مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ تَمَّ كَتْمُهُ ، أَلْجَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ " ⁽²⁾ .

وثبات الحركة هنا يعني وحدة المكان والزمان ، ويعني انقطاع هذه الحركة عن النشاط والاستمرار ، وقد نُوسب كَتْمُ العلم من الفم باللجام الذي يدل على صبغة حيوانية ، إذ يوضع في حنك الدابة .

واللجام لا يُحْكَم السيطرة على فم الدابة إلا إذا شُدَّ إلى الرأس وقيده ، وكأن العلم الذي حُصِرَ في الرأس ، وما تعدى اللسان ، بات سبباً لتعذيب أرقى وأعلى عضو في الإنسان ، وجعل خاتم الحيوانية يطبع على وجهه ، ثم إنه لجام من نار ، و جَدْوَةٌ هائلة القدرة مكثفة تُستخرج من النار ، لتبرز في الفم ، فتقطع الحركة بهذه الحركة الثابتة ، وها هنا يقترن المرعب بالمنفر ؛ لأجل تهويل هذه المصيبة .

وقد تتجلى القوة في السرعة ، فتقطع المسافات المديدة ؛ لأجل مناسبة الفكرة، وقد يتبدى عنصر الزمان في صور السرعة جلياً واضحاً ؛ لأن "

1- سورة البقرة : (الآية : 7) .

2- الترمذي : كتاب العلم عن رسول الله ، باب ما جاء في كتمان العلم ، ص749 رقم الحديث 2654 . وهو صحيح .

المكان والزمان متحدان ، ويشكلان هيكلاً بُني الكون على أساسه ، فنحن قد ننتقل في الزمان مثلما نستطيع التحرك في المكان ، وللمكان بعض من خاصية التدفق في الزمان⁽¹⁾ .

وقد برز تدفق المكان في الحديث النبوي من خلال اللوحات ذات العناصر المتشابكة المتلاحقة، والأحداث المتطورة مع تطور الفكرة، ونستشهد لصور السرعة بحديث أبي هريرة . رضي الله عنه . أن رسول الله . صلى الله عليه وسلم قال : " مِنْ خَيْرِ مَعَاشِ النَّاسِ لِهَمٍ : رَجُلٌ مُمْسِكٌ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، يَطِيرُ عَلَى مَتْنِهِ ، كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً⁽²⁾ أَوْ فَرْعَةً طَارَ عَلَيْهِ ، يَبْتَغِي الْقَتْلَ ، أَوْ مَظَانَّهُ ، أَوْ رَجُلًا فِي غُنَيْمَةٍ فِي شَعْفِهِ⁽³⁾ مِنْ هَذِهِ الشَّعْفِ ، أَوْ بَطْنَ وَادٍ مِنْ هَذِهِ الْأَوْدِيَةِ ، يُقِيمُ الصَّلَاةَ ، وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ ، وَيَعْبُدُ رَبَّهُ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْيَقِينُ ، لَيْسَ مِنَ النَّاسِ إِلَّا فِي خَيْرٍ"⁽⁴⁾ .

وفي هذا الحديث أنموذجان خيران : رجل مجاهد، ومتعبد متبتل ، وكلاهما يُؤدي حركة في كنف الله . عزَّ وجلَّ . ورعايته ، حركة في فضاء واسع ، وحركة في مكان معين ، ذات طابع منظم ، وقد ظهر المجاهد في أعلى درجات الجاهزية (ممسك بعنان فرسه) يمثّل وقوفه النقطة في الرسم ، ثم يبدأ الخط ، إذ ينقلب إلى طير سريع على حصانه من غير اتجاه .

1- السينما فنّاً تأليف جان دويري ، ترجمة خالد حداد ، ص164 ، طبعة واحد ، الناشر وزارة الثقافة - دمشق - سوريا 1993 م .

2- الهَيْعَةُ : كل ما أفزعك من صوت أو فاحشة تُشاعُ . ينظر الصحاح للجوهري ج3/611 (مادة : هيع) تحقيق أميل بديع يعقوب ، الناشر دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان الطبعة الأولى 1420 هـ - 1999 م .

3- الشَّعْفَةُ بالتحريك : رأس الجبل ، والجمع شَعْفٌ وشُعُوفٌ وشَعْفَاتٌ ، وهي رؤوس الجبال . المصدر السابق ج91/4 (مادة : شعف) .

4- مشكاة المصابيح ، تأليف محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ، كتاب الجهاد ج364/2 ، الناشر المكتب الإسلامي - بيروت - لبنان ، الطبعة الثالثة 1405هـ - 1985م .

وبعد هذا تبدأ حركات متوالية تشدّ هذا الرجلُ المقْدَام كلما سمع طلباً للجهاد ، ويكون جوابه طيراناً ، والتعبير (ببتغي القتل ، أو الموت) إشارة حركية إلى شجاعته الفائقة ، وإيحاء بسرعته واندفاعه نحو القتال لا يهاب الموت ، ولا يتراخى ولا يفتر . وليست التمددات اللغوية : يطير على متنه ، من هذه الشّعف ، من هذه الأودية ، ليست إلا تذكيراً بالحركة القوية السريعة التي تملأ مساحات كبيرة ، وهذا يدل على حركة المسلم وفاعليته في الوجود على مستوى الفكر والعمل .

والزمان قائم في فعل الطيران الذي يحدّد المكان الفسيح ، والمُضَيّ في (طَارَ) يدلّ على السرعة مثل (سَمِعَ) ، وهكذا الفعل الماضي ، كأن بدايته في نهايته ليس من زمننا ، والاستمرار والسيلان الزمني في فعل (ببتغي) يرشد المسلمين إلى أهمية الجهاد واستمراره على مدى العصور ، وهكذا يقدم الحديث لوحة ينفرد بها هذا الرجل البطل متخذاً زماناً ومكاناً من خلال الفعل . ويرى (لينسج)⁽¹⁾ الذي أقام مقارنات بين الرسم والشعر في كتابه " أن عنصر المكان يقوى على تقديم موضوعات محسوسة بشكل مباشر حيّ ، ولكنه لا يستطيع أن يقدم حركة مثل تلك الأجسام إلا بشكل غير مباشر ، ومن خلال صور الأجسام ذاتها ، وعنصر الزمان يقدم غير ذلك ، فهو يقدم الأفعال تقديماً مباشراً ، ولكنه لا يستطيع أن يقدم الأجسام إلا تقديماً غير مباشر، من خلال الأفعال"⁽²⁾.

وثمة نصوص نبوية تصوّر حركات تسلسل سرعتها ، مع تسلسل طرف المشبه به ، كما في حديث عبد الله بن مسعود⁽³⁾ . رضي الله عنه . عن النبي

1 - لم أتر على ترجمته .

2- ينظر الشعر بين الفنون الجميلة ، تأليف نعيم الياضي ص16 - 19 ، الناشر دار الجيل - دمشق 1983 م ، النقد الحديث تأليف محمد غنيمي هلال ص51 الناشر دار العودة - بيروت - لبنان 1973 م .

3- عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي ، أبو عبد الرحمن : صحابي من أكابرهم ، فضلاً وعقلاً ، وقرباً من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو من أهل مكة ، ومن السابقين إلى

صلى الله عليه وسلم قال : " يَرِدُ النَّاسُ النَّارَ ، ثُمَّ يَصْدُرُونَ مِنْهَا بِأَعْمَالِهِمْ ، فَأُولَئِهِمْ كَلِمَحِ الْبَرْقِ ، ثُمَّ كَالرَّيْحِ ، ثُمَّ كَحَضِرِ الْفَرَسِ ، (1) ثُمَّ كَالرَّاكِبِ فِي رِجْلِهِ ، ثُمَّ كَشَدِّ الرَّجُلِ (2) ، ثُمَّ كَمَشِيهِ " (3) .

يضعنا النص بإزاء ست حركات يقوم بها ستة ، كل واحد منهم مشهد مكتمل العناصر ، فأسعدهم من يكون في سرعته وتخلصه من النار كلمح البصر ، لتقريب السرعة الفائقة إلى الإفهام ، ويكاد ينعدم الزمان في حركة لمح البصر ، ثم تتوالى حلقات النص إلى أتعس هؤلاء وهو من كانت سرعته كالماشي ، فلا يشغله هذا البطء عن مشاهدة النار خلافاً للمسرعين ، كل ذلك في تصعيد للفكرة ، وتسلسل للسرعة من الأعلى إلى الأسفل ، وهي صورة مستفادة من البيئة العربية ، أي مشاهدة ورود الإبل وصدورها على مورد الماء .

وقرين هذا ما جاء في حديث الشفاعة عن أبي هريرة . رضي الله عنه . عن النبي . صلى الله عليه وسلم : " فَيَأْتُونَ مُحَمَّداً . صلى الله عليه وسلم ، فَيُؤَدِّنُ لَهُ ، وَتُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ ، فَتَقُومَانِ جَنْبَتِي الصِّرَاطِ يَمِيناً وَشِمَالاً ، فَيَمُرُّ أَوْلُكُمُ كَالْبَرْقِ ، قُلْتُ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي : أَيُّ شَيْءٍ كَمَرَ الْبَرْقُ ؟ قَالَ : أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجَعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ ؟ ثُمَّ كَمَرَ الرَّيْحَ ، ثُمَّ كَمَرَ الطَّيْرَ ، وَشَدِّ الرَّجَالِ ، تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ وَنَبِيِّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ ، يَقُولُ :

الإسلام ، وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة . وكان خادم رسول الله الأمين . توفي سنة

32هـ - 653 م . ينظر الأعلام ج4/137 .

1- حُضِرَ الْفَرَسُ : التراد ، ثم الفتور ، ثم التفهير ؛ لأن المُفْهَرُ يَعْتَرِيهِ فَتُورٌ وَقَلَّةٌ نَشَاطٍ ، وكان التفهير حقيقته نفي الصلابة . ينظر الفائق في غريب الحديث للزمخشري ج3/58 حرف الفاء مع الباء ، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين الناشر دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان 1417هـ - 1996 م .

2- شَدَّ الرَّجُلُ : الشَّدِيدُ الْعَدُو . ينظر لسان العرب لابن منظور ج39/8 (مادة : شدد) ، الناشر دار صادر - بيروت - لبنان الطبعة الأولى بدون تاريخ .

3- سنن الترمذي ، كتاب تفسير القرآن ، باب سورة مريم ص874 حديث رقم 3172 ، قال هذا حديث حسن .

سَلِّمْ سَلِّمْ ، حَتَّى تَعْجَرَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ ، حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ ، فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَحْفًا (1) .

وهذا النص يساوي بين سرعة البرق ، ولمح البصر ، مع لفتة إلى النظر في الموجودات لفهم حيثيات الرحمة في الانطلاق من النار ، وكذلك تسلسل السرعة من حركة البرق مع ضيائها المنعش المعبر عن الخلاص هنا من الظلمات في النار ، ثم سرعة الريح ، ثم سرعة الطير ، وسعي الرجال ، وتبقى الحركة البطيئة مقرونة بالزحف المعبر عن القساوة الجسدية ، والقساوة النفسية في رؤية النار للحظات الأخيرة .

وإذا كانت هذه السرعة تعدّ مقابلة بين الحسي ، والنفسي من الحركات ، فثمة أحاديث تختلف ماهية السرعة فيها ، فهي ذهنية تعبر عن حركة الزمن السيّال ، ومتصاعدة نحو الأعلى ، كما في الحديث الذي رواه أنس بن مالك (2) . رضي الله عنه . عن النبي . صلى الله عليه وسلم . قال : " لا تُقَوْمُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَقَارَبَ الزَّمَانُ فَتَكُونُ السَّنَةُ كَالشَّهْرِ ، وَيَكُونُ الشَّهْرُ كَالْجُمُعَةِ ، وَتَكُونُ الْجُمُعَةُ كَالْيَوْمِ ، وَيَكُونُ الْيَوْمُ كَالسَّاعَةِ ، وَتَكُونُ السَّاعَةُ كَالضَّرْمَةِ (3) مِنَ النَّارِ " (4) .

والمشبه والمشبه به ذهنيان إلا في الخاتمة ، ويمكن أن نقول : ثمة سرعة في النص متصاعدة نحو الأسفل ، حيث الانتقال من السنة إلى الشهر إلى

- 1- صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ج55/3 باب أدنى أهل الجنة منزلة ، حديث رقم 195 .
- 2- أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم النجاري ، ولد بالمدينة سنة 10 ق هـ - 612 م ، وهو من الصحابة الذين شهدوا أحداً ، وهو من رواة الحديث ، ثم رحل إلى دمشق ومنها إلى البصرة فمات فيها سنة 93 هـ - 712 م ، وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة . ينظر الأنساب للسمعاني ج356/5 تحقيق محمد عبد القادر عطا الناشر دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان 1419 هـ - 1998 م ، الأعلام ج24/2 .
- 3- الضَّرْمَةُ بالتحريك : النار وهذا يقال عند المبالغة في الهلاك ، وأضرم النار إذا أوقدها . ينظر النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ج86/3 (باب الضاد مع الراء) الناشر دار الفكر للنشر والتوزيع بيروت - لبنان 1421 هـ - 2000 م .
- 4- سنن الترمذي ، كتاب الزهد ، باب ما جاء في تقارب الزمان وقصر الأمل ص672 رقم الحديث رقم 2337 . قال أبو عيسى حديث غريب من هذا الوجه .

الجمعة إلى اليوم إلى الساعة إلى زمن ضئيل سريع لضربة النار ، وذلك وفق بغية التشابك الذي يدل على التشويق ، وترايط النص ، ومتابعة الجزئيات ، وحلقات النص : " كالشهر ويكون الشهر كالجمعة " حيث تعاد الكلمة من المقطع اللغوي السابق .

والذي يسترعي الانتباه أن هذه الحركة السريعة ذهنية ، لا تُرى ذاتها ، بل تُرى آثارها ؛ لأن الزمان بُعْدٌ غير مرئي في الموجودات ، إنه زمان سيّال متدفق ، يمضي مسرعاً مما يخوف الإنسان من الفناء ، والزوال ، خصوصاً أن تُوجت هذه السرعة بذكر النار مصير المجرمين ، إشارة إلى كثرة الفتن ، والمعاصي المستلزمة للعقوبة بنار جهنم ، وثمة رواية لأبي هريرة فيها : " وَتَكُونُ السَّاعَةُ كَاخْتِرَاقِ السَّعْفَةِ الْخُوصَةِ " (1) أي : سَعْفُ النَخِيلِ .

المطلب الثالث / الحركة الدائرية :

ربما استقرت القوة في الحركة الدائرية في بعض الأحاديث ، فوحدت المكان مع بذل الزمان ، وتعني الدائرة الانغلاق على الشيء ؛ لأنها تتكون من عدد لا نهاية له من الخطوط، مبدؤها نهايتها، وجمالها في الانحناء الذي هو أرشق الحركات ، وأكثرها حريةً وطلاقةً ولفناً للانتظار، والخط الدائري هو حركة الدارات تسبح خالقها . وذلك مثل حركة الطواف الذي جاء في مثل حُسن ختام الدعوة إلى الله بالإسلام ، إذ روى أبو هريرة . رضي الله عنه . أن رسول الله . صلى الله عليه وسلم . قال : " إِنْ مَتَّلِي وَمَتَّلَ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ قَبْلِي كَمَتَّلِ رَجُلٍ بَنَى بُنْيَانًا فَأَحْسَنَهُ ، وَأَجْمَلَهُ ، إِلَّا مَوْضَعَ لِبْنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَاوِيَاهُ ، فَجَعَلَ النَّاسُ يُطَوِّفُونَ بِهِ ، وَيُعْجِبُونَ بِهِ ، وَيَقُولُونَ : هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبْنَةُ ، أَنَا اللَّبْنَةُ ، وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ " (2) .

1- مسند أحمد بن حنبل ج2/537 ، تحقيق السيد أبو المعاطي النوري، الناشر عالم الكتب بيروت - الطبعة الأولى 1419هـ - 1998م .
2- صحيح مسلم ، الفضائل ، باب ذكر كونه - صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ج15/55 حديث رقم 2286 .

إن هذا التمثيل يقدّم في بداية الأمر رجلاً واحداً يبني داراً جميلة ، ثم يُسعدنا التعاقب الزمني في الفن الأدبي ، فنجد أن الأشخاص يتكاثرون في المشهور ، ليكونوا حلقات حول هذا البيت .

ويدل التعبير بالفعل المتعدي(جَعَلَ) على النشاط في حركة الطواف المتكررة ، أما الفعل المضارع (يطوفون) ، (يُعجبون) باستمراريته وسرمديته إلى دوام الحاجة إلى النور المحمدي على مر العصور ، خصوصاً أن الإسلام يقرن بالبناء الجميل وبالبيت رمز الأمان والرفي فلا يكون لغير الإنسان ، فهو دين الحضارة ، وهو ضرورة وجمال .

وتتجلى في هذا النص حركة شكلية دائرية حسية في الطواف ، وهي منظمة متكررة ، كأنها إيقاع موسيقي منعش كحركات ذرات الكون ، وثمة حركة نفسية هي الإعجاب الذي يتبعه حديث داخلي ، هلاً وُضعت هذه اللبنة ؟ أما الزمان فهو طويل في حركات النص ، ولكنه لا يُحسب مع التكرار ، والمكان واسع بالتدرج من تكاثر حلقات الطائفتين .

ويقول جويو عن الخطوط المنحنية : " لئن كنا في إدراك الأشياء المنظورة، والملموسة مثلاً نُفَضِّلُ الخطوط المتموجة المتشّنية على الخطوط المنكسرة المتقطعة، فلأن إدراك الأولى يتطلب من عضلات العين عملاً أقلّ ، فما تحتاج إليه العين إذ تتابعها إلى وقف حركاتها فجأة ، أو تغيير اتجاهها على حين غرّة ، شأنها حين تتابع خطأً منكسراً متذبذباً ، ونلاحظ أن جميع الكائنات الحية من حيوان ونبات تمثّل في حركاتها ، بل في تركيبها الخطّ المتموج" (1).

ونظير هذه الدائرة الجميلة في الطواف حركة الدوران في نص تزهبي ، إذ قال أسامة بن زيد (2). رضي الله عنهما . سمعت رسول الله . صلى الله علي

1- مسائل فلسفة الفن ص/ 55 ، وانظر التصوير والحياة ص/113 ، ومن الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده ، ص/41 .

2- أسامة ، حب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بن زيد ، وزيد قتل في عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، كان ابن عمر يقول : ما كنا ندعوه إلا حبه زيد بن محمد حتى نزلت :

وسلم يقول : " يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابٌ⁽¹⁾ بَطْنِهِ ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ فِي الرَّحَى ، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ ، فَيَقُولُونَ : يَا فُلَانُ مَا لَكَ ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ ، وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ ؟ فَيَقُولُ : بَلَى ، قَدْ كُنْتُ أَمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ " (2).

تتضمن هذه اللوحة خمسة مشاهد متوالية متعاقبة بفعل الزمان : الإلقاء في النار ، اندلاق الأمعاء ، الدوران ، اجتماع أهل النار ، جواب المُرَائِي فِي وَعْظِهِ ، والمشهدان الأخيران عبارة عن حوار في أحشاء النار ، وقد كان ممكناً مع هول العذاب الشديد ، وذلك لعدم وجود الموت في عذاب الآخرة ، ولتعدد أحوال أهل النار وهكذا يترافق الرعب الشديد ، والقبح وفضاعته في المشاهد التي جاءت صوراً حقيقية غير قائمة على المجاز ، لكن مضمونها المنفرد الجديد يثير الخيال .

ويتجلى الرعب في مشهد لا يُعهد في الدنيا ، إذ يدور المرء بأمعائه ، وكأنه أصيب بصَرَخٍ ، يَحَارُ إِلَى أَيْنَ يَذْهَبُ بِمَا رَأَى مِنْ أَمْعَائِهِ ، والدوران حركة متكررة في غاية اليأس والشديد بالاختناق بإطار الحركة الدائرية . ومما يزيد في تصوير العنف بروزاً : الجمالية الصوتية ، إذ انْتَقِيَتْ أصوات شديدة للتعبير (تندلق ، أقتاب بطنه) ، وكأنما يصوّر الكسر بعد الفتح في (تندلق) خروج الأمعاء بعد تجمعها في الجوف ، وهو خروج إلى الأسفل كالكسرة ، كما نجد صفة الإكراه في صيغة الفعلين : (يُؤْتَى ، وَيُلْقَى) ، والبناء للمجهول هنا له ميزتان : إيماء إلى القوة الخارجية العظيمة التي تصنع ما تصنع ، ولفت نظر المتلقي إلى الحدث نفسه ؛ لأهميته التصويرية .

(أدعوهم لأبائهم) توفي ابنه أسامة عقب خلافة عثمان سنة 54هـ - 674 م . ينظر الأنساب للسمعاني ج4/638

1- الأَقْتَابُ: جمع قَتَبٍ وتعني الأمعاء . ينظر أساس البلاغة للزمخشري ص660 (مادة : قتب)
2- صحيح مسلم كتاب الزهد ، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله ج18/110 حديث رقم . 2989

ويتبدى القبح في مغايرة المشهد للمعهود ، وفي تشبيه الدوران بدوران الحمار حول الرحى ، مما يزيد في تصوير بهيمية المرثي وحياته الغريزية ، إذ يغدو عبداً لغرائزه ، فضلاً عن اندلاق الأمعاء المشيرة للتعزز مع الرعب . ويقول الدكتور عز الدين السيد :⁽¹⁾ "أما بناء الفعلين الأخيرين في صورته للفاعل ، فليُشير إلى حصولهما منه ، فاندلاق الأمعاء إثر انفجار الحاجز ، وهو أمر تُحَدِّثُهُ القَدْفَةُ ، والدورانُ بها إثر الصدمة ، وهو تُحَدِّثُهُ الفواعل ، وكثيراً ما يَحْدُثُ تلقائياً عند المباغته ، أما أنها أفعال مضارعة لم تقترن بالتشويق مع أنها أمور أخروية مستقبلة ، فلذلك لاستحضارها في الحال ، كأنها تُدْرِكُ وتُحَسُّ ، كما يُدْرِكُ ويُحَسُّ دورانُ الحمار بالرحى ، والتشبيه بأمر يتصل بالحمار لا يكون إلا تقبيحاً وذلك سرّ اختياره دون ما يَجْرُ الرحى من سائر الحيوان"⁽²⁾ .

وقريب من الحركة الدائرية حركة التطويق، وهي حركة عنيفة أخذة بالعنق، حركة شاقة على من يدخل في إطارها ومحيطها ويظلّ أسيرها⁽³⁾. قال سعيد بن زيد⁽⁴⁾ رضي الله عنه - سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: "مَنْ أَخَذَ شَيْئاً مِنَ الْأَرْضِ ظُلْماً ، فَإِنَّهُ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ"⁽¹⁾.

- 1- عز الدين علي السيد سليمان : ولد في قرية (سنتريس) بالمنوفية سنة 1915 م يدعو دائماً إلى الإصلاح ، وله مصنفات كثيرة منها : (التكرير بين المثير والتأثير) ، وتوفي في المدينة المنورة في حادث سنة 1984 م ، ودفن في البقيع . شبكة المعلومات .
- 2- الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية ، تأليف عز الدين علي السيد ص169 ، الطبعة الثانية ، الناشر دار اقرأ بيروت - لبنان - 1406هـ - 1986م .
- 3- الصورة الفنية في الحديث النبوي ص62 .
- 4- هو سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل القرشي ، ولد بمكة سنة 22 ق هـ - 600 م ، وهو صحابي من خيارهم ، هاجر إلى المدينة ، وشهد المشاهد كلها إلا بدرأ ، وهو أحد المبشرين بالجنة ، وله في كتب الحديث 48 حديثاً ، وتوفي بالمدينة سنة 51هـ - 671 م . ينظر الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة ، تأليف الإمام شمس الدين الملقب بالذهبي ج1/436 تعليق أحمد محمد نمر الخطيب ، الناشر دار القبة للثقافة الإسلامية - السعودية - جدة الطبعة الأولى 1413 هـ - 1992 م .

يمكن أن نفسر هذه الحركة بأن حلقات سبعا ستطوق رقبة هذا الآخذ الآثم، وذلك من امتداد يلي الشبر المأخوذ من الأرض الأولى نحو سبع أرضين ، وإذا كان التفسير كذلك ، فالصورة ستكون في غاية التشويه ، إذ يبتعد الرأس عن الجسد بُعداً غيبياً تبعاً لسماكة كل أرض ، وكل هذا في حركة ذهنية غيبية لا تُرى بالأبصار ، وهذا من حيث المكان ، أما الزمان فهو لم يقع بعد. وهذه القطعة الصغيرة من الأرض كانت بمقياس شبر أي : اليد المنفردة ، وهذا إichاء بأن هذا الشبر الملتف حول العنق إنما هو يد كبيرة تخنق ؛ لأن الشبر في اليد العادية لا يلتف حول العنق بالكامل ، بل حسبه أن تلتف حول المعصم ، فهو إذن لا يخنق ، بل يعصر العنق عصاراً ، وهذه الحركة تجعلنا بإزاء مشهد قريب ، نجد فيه هذه العنق محوطة بطوق من هذه الأرضين مما يدل على ضالة الإنسان وضعفه أمام القدرة الإلهية ، أو يدل على ضخامته ، وحيوانيته بأطماعه التي تضخم من جسده ، حتى يتسع لهذا الطوق الهائل .

ويمكن أن نعدّ التطويق من الطوق المحيط بالعنق ، فتكتمل الحركة الدائرية ، وعليه يمكن أن نقول : شخّص الشبر ، ليقوم بحركة التطويق ، فهو شخص هائل الحجم ، تمتد ذراعه من أفق بعيد مرتبط بعنق الأرضين السبع كما في حديث الخسف الذي ذكرته سابقاً .

هذه الحركة القوية بحجمها ، وغيبيتها تجعل الإنسان الظالم في ثبات ، أو حركة ثابتة كالنحت الذي يُجمد فيه الزمان ، إذ تُستجمَع له القوى القصوى ، والإحكام الشديدة من خلال دائرة كبرى ، والتطويق يفيد الثقل الكبير ، وذلك إذ كانت الأرضون طوقاً في العنق ينوء به الظالم ، ويُضغَطُ به إلى الأسفل . وهكذا وجدنا أن الحركة القوية في الحديث النبوي اتخذت أشكالاً متعددة ، فهي سريعة ، ولها مسافات وفُسْحٌ زمنية ، واتخذت أشكالاً دائرية أحياناً ، واتجاهات مختلفة ، في عالم الغيب ، والشهادة ، واستعانت نصوص الحديث

1- صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في سبع أرضين ج141/2 رقم الحديث

النبوي بوسائل داخلية في التركيب ؛ ليتم التعبير عن أغنى مكامن الأثر الوجداني ، واستحضار المشاهد ، فقد رصدت لوحات مستوفية العناصر ، فؤارة بالحركة الشعورية والحركة الحسية ، والحركة الذهنية .

الخاتمة

وخلاصة القول في هذا البحث نستنتج من ذلك :

- 1 . أن فائدة جمالية اللوحة هي امتلاك النفس القارئ امتلاكاً كاملاً بالحُجَّة الثابتة الحسية التي تبقى مقترنة بإيضاح الفكرة .
- 2 . وأن منافذ الدخول على النفس تتعدد ، وهكذا تغدو الفكرة شيئاً حسياً بعد تذوق الصورة الحسية ، وتكون سبيلاً إلى إثبات الدعوى والجمال الفني ، فيتحقق هنا الإقناع والإمتاع .
- 3 . وكذلك أكثر ما يميز الفن الأدبي وتصويره الحركة ، وهي لحظة جامدة في الرسم ؛ لأن الأدب يعبر بالألفاظ والعبارات ، ويعبر التصوير بالألوان والخطوط ، وتعبر الموسيقى بالأصوات ، والمسافات ، ويعبر النحت بالأحجام ، والأوضاع ، وتتحكم الأداة في اختيار الموضوع ، فالأدب بوجه عام يعبر عن الحركة المتتابعة ، سواء كانت حركة مادية تتم في الخارج ، أو حركة شعورية تتم في الخيال ، وهذا يتسق مع طبيعة التعبير اللفظي بالألفاظ المتتابعة في اللسان ، التي تملك وصف كل جزء من جزئيات الحركة المتتابعة في الزمان ، ومن هنا كانت موضوعات الأدب ، الشعر والقصة والأقصوصة والتمثيلية والترجمة والخاطرة والمقالة والبحث ، كلها حركات في الطبيعة أو في الشعور .
- 4 . تبين لي أيضاً أن الحديث النبوي يحتوي على أنواع متعددة من الحركات فهي قوية ، وسريعة ، وممنوعة ، ودائرية ، وذات اتجاهات ، وغير ذلك ، وكانت هذه الحركات ثوباً لائقاً تماماً بالفكرة الحسية ، والروحية ، وممثلة لها بأقصى غايات الحجة ، في شكل يحفز على التخيل ، ولكن لا يدفع بالمرء إلى وهم ، أو إغماض ، فالدلالات متسعة نتيجة التغيرات المكانية ،

والزمانية ، واختلاف المقاييس، ويكاد يوحد المرء بين الحسي ، والروحي لكن لا خلط في الأمر ، فإنها الحقائق الدينية التي لها تجليات متنوعة . وفي هذا البحث المتواضع نوصي ، وندعو إلى الاستمرار في منهج الدراسة الموضوعية المتأنيبة ، وذلك للتمكن من دراسة بلاغة النبي الأكرم سيد البشرية . عليه الصلاة والسلام . دراسة عميقة تفي بحقه ، وتبين مكانته الفنية المرموقة في الأدب العربي ، كما بين الفقهاء مكانته الفكرية الرفيعة في الفكر الإنساني ، ومسيرته الحضارية ، وهذا ما حرصت عليه في حدود هذا البحث .

المصادر والمراجع

- 1 . القرآن الكريم ، رواية حفص عن عاصم ، طبعة دار طيبة .
- 1 . أساس البلاغة للزمخشري ، تقديم محمد أحمد قاسم ، الناشر المكتبة العصرية . صيدا . بيروت الطبعة الأولى 1423 هـ . 2003 م .
- 2 . أسرار البلاغة للجرجاني ، تعليق محمد رشيد رضا ، الناشر دار المعرفة للنشر والطبع بيروت - لبنان . 1978 م .
- 3 . الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني تحقيق علي محمد البجاوي ، الناشر دار الجيل بيروت . الطبعة الأولى 1412 هـ .
- 4 . الأعلام لخير الدين الزركلي الناشر دار العلم للملايين الطبعة الخامسة عشرة 2002 م .
- 5 . الإلزامات والتتبع لأبي حسن الدار قطني ، تحقيق مقبل بن هادي الوادعي ، الناشر دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الثانية 1405 هـ .
- 6 . الأنساب للسمعاني ، وضع حواشيه محمد عبد القادر عطا ، الناشر دار الكتب العلمية بيروت - لبنان . الطبعة الأولى 1419 هـ . 1998 م .
- 7 . التبيين في البيان تأليف الإمام الطيبي تحقيق عبد الستار حسين زموط . الناشر دار الجيل بيروت - لبنان - بدون تاريخ .
- 8 . الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، راجعه محمد إبراهيم الحفناوي ، ومن معه ، الناشر دار الحديث . القاهرة 1428 هـ . 2007 م .
- 9 . السينما فناً تأليف جان دويري ، ترجمة خالد حداد ، الناشر وزارة الثقافة دمشق . سوريا 1993 م .
- 10 . الشعر بين الفنون الجميلة ، سلسلة المكتبة الثقافية ، تأليف نعيم الوافي ، الناشر دار الكتاب العربي - القاهرة . 1968 م .

- 11 . الصحاح للجوهري ، تحقيق أميل بديع يعقوب ، الناشر دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان 1420 هـ . 1999 م .
- 12 . الصورة الأدبية تأليف مصطفى ناصف ، الناشر دار مصر . القاهرة . 1958 م
- 13 . الصورة الفنية في الحديث النبوي ، لمحمود سعيد رمضان البوطي ، الناشر دار المكتبي سوريا - دمشق - 2006 م .
- 14 . الفائق في غريب الحديث للزمخشري ، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين ، الناشر دار الكتب العلمية بيروت . لبنان 1417 هـ . 1996 م .
- 15 . الفهرست للنديم ، ضبطه وشرحه يوسف علي طويل ، وضع فهارسه أحمد شمس الدين ، الناشر دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان 1416 هـ . 1996 م .
- 16 . الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة ، تأليف الإمام شمس الدين الذهبي ، الناشر دار القبة للثقافة الإسلامية ، السعودية ، الطبعة الأولى 1413 هـ . 1992 م .
- 17 . المنهاج الواضح تأليف حامد عوني ، الناشر مكتبة الجامعة الأزهرية ، الطبعة بدون تاريخ .
- 18 . المؤلف والمختلف للأمدي تعليق الدكتور / ف . كرنكو ، الناشر دار الجيل بيروت 1411 هـ . 1991 م .
- 19 . النقد الحديث تأليف محمد غنيمي هلال ، الناشر دار العودة . بيروت . لبنان 1973
- 20 . النهاية في غريب الحديث والأثر لأبي السعادات بن الأثير الجزري ، الناشر دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت . لبنان 2000 م .
- 21 . تطور الصورة الفنية في الشعر الحديث ، تأليف نعيم اليافعي ، اتحاد الكتاب العرب دمشق - 1983 م .
- 22 . جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير تأليف أحمد زكريا ياسوف الطبعة الأولى ، الناشر دار المكتبي . دمشق . 1994 م .
- 23 . جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، تأليف السيد أحمد الهاشمي ، تحقيق يوسف الصميلي ، ص 234 ، الناشر المكتبة العصرية . صيدا . بيروت 1425 هـ . 2005 م .
- 24 . ديوان ابن المعتز ، قدمه عمر فاروق الطباع ، الناشر دار الأرقم بن أبي الأرقم بيروت - لبنان - بدون تاريخ .
- 25 . ديوان الشماخ تحقيق صلاح الدين الهادي ، الناشر دار المعارف بمصر .
- 26 . ديوان لبيد الناشر دار صادر ، الطبعة بدون تاريخ .
- 27 . سنن ابن ماجة ، تأليف أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ، كتب حواشيه محمود خليل ، الناشر مكتبة أبي المعاطي ، الطبعة بدون تاريخ .
- 28 . سنن الترمذي طبعة منقحة ، الناشر دار ابن حزم للطباعة والنشر بيروت . لبنان 1422 هـ . 2002 م .
- 29 . سنن داود فهرسة هيثم بن نزار تميم ، الناشر دار الأرقم بن أبي الأرقم بيروت . لبنان 1420 هـ . 1999 م .

- 30 . صحيح البخاري تحقيق محمد عبد القادر عطا . الناشر دار التقوى للتراث . القاهرة 1421هـ . 2001م .
- 31 . صحيح مسلم بشرح النووي ، تحقيق رضوان جامع رضوان . الناشر مؤسسة المختار القاهرة 2001 م .
- 32 . عيار الشعر لابن طباطبا ، تحقيق طه الحاجري ، محمد زغول سلام ، الناشر المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة 1956 م .
- 33 . كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ، تحقيق علي محمد البجاوي ، الناشر المكتبة العصرية بيروت - لبنان - 2004 م .
- 34 . لسان العرب لابن منظور ، طبعة جديدة محققة ، الناشر دار صادر بيروت - لبنان بدون تاريخ .
- 35 . مبادئ النقد الأدبي تأليف أيفور أمسترونج ترجمة محمد مصطفى بدوي ، الناشر المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر - القاهرة - 1963 م .
- 36 . مختار الصحاح للإمام محمد بن أبي بكر الرازي ، الناشر الهيئة المصرية للكتاب .
- 37 . مسائل فلسفة الفن المعاصر ، تأليف جان ماري جويتو ، ترجمة سامي الدروبي ، الطبعة الثانية ، الناشر دار اليقظة العربية - دمشق - سوريا 1965 م .
- 38 . مشكاة المصابيح ، تأليف محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ، الناشر المكتب الإسلامي - بيروت 1405 هـ . 1985 م .
- 39 . معجم مقاييس اللغة تأليف أبي الحسين أحمد بن فارس الرازي ، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين ، الناشر دار الكتب العلمية - بيروت . لبنان 1420هـ . 1999 م .
- 40 . معرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني ، تحقيق عادل بن يوسف العزازي ، الناشر دار الوطن للنشر - الرياض - الطبعة الأولى 1419هـ . 1998م .
- 41 . نقد الشعر لأبي الفرج قدامة بن جعفر تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ، الناشر دار الكتب العلمية بيروت - لبنان - بدون تاريخ .